السهولة فى شعر المتنبي

كان المتنبي يرى فى لحظ الغيب أن أبا العلاء المعرى سينظر إلى أدبه بعد مائة من السنين . ولعله كان يرى فى ذلك اللحظ أيضاً أن الطبيب محمد كامل حسين سوف ينظر إلى شعره بعد ألف من السنين . وكأن رسالات الغيب تداولها بريد الالهام ؛ فكان أن دافع المعرى عن المتنبي نقد الطبيب حين قال :

عجبي للطبيب يلحد الخا لق من بعد درسه التشريحا

ولم يكن طبيبا ملحداً فى الخالق من بعد درسه تشريح العظام ، وإنما كان ملحداً فى شعر المتنبي ، فتجهم له وتجنى عليه ، وساق الدليل من ذوقه الخاص على أن هذا الشعر عقلى محض خال من الخيال ، وليس فى صوره المنوعة ما يهز نفوسنا أو يرفع من إحساسنا شيئاً .

لقد أمعن الطبيب فى شعر أبى الطيب طعنا وتجريحاً ، لا تمحيصاً وتشريحاً ، فقال إنه معقد عقيم ، بين التعسف والتكلف ، فنقب فى أبياته وقصائده ولا تنقب علماء البلاغة الذين سكبوا كل مدادهم على الورق فى سبيل التنقير على التعقيد اللفظى والمعنوى فى شعر الشعراء ، وخاصة فى شعر المتنبي . وكان المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس حتى يومنا هذا ، فمن لطبيبنا الأديب محمد كامل حسين أن يعود إلى شعر أبى الطيب كاشفاً عن عيوبه التى رآها دليلا على صغار وشح فى نفس المتنبي وقصور فى همته وكفايته ، وقد عراه من كل خصلة فى رقة الشعور والسليقة وسمو الطبع والطموح ، وحذر المؤلفين من تقديم المتنبي للشباب على أنه مثل يحتذى ، ودعم رأيه بكلمة للشاعر الفرنسى بول فاليرى . وقد نسى حفظه الله أنه يستشهد على مقاله فى تعقيد أبى الطيب بامام المعقدين فى الشعر الغربى المعاصر .

وإنه ليطول بى العجب ، إذ أرى إلى حظ المتنبي ، فأجد فريقا من نقاده دأبهم الغض من شعره والكشف عن مساوئه ، دون ذكر محاسنه ، حتى ألف من شعر أبى الطيب وفى عصره أناس كتباً فى قدح هذا الشعر وتبيان معراته ومثالبه ، وكان الصاحب بن عباد زعيم تلك العصبة المعادية للفن الموهوب ، حتى قيض الله له أبا حيان فسلقه انتقاماً على ما قدم من مساءة إلى شعر أبى الطيب . ولست بمعرض السلق والانتقام ، وإنما أود أن أنفح طبيبنا الناقد محمد كامل حسين برياحين الشاعر أحمد بن الحسين .

إن من شعر أبى الطيب ما يذوب سهولة ورقة ، ويفيض سلاسة ووضوحا مثل قوله :

إذا كان شم الروح أدنى لقربكم فلا برحتني روضة وقبول
وما شرق بالماء إلا تذكراً لماء به أهل الحبيب نزول

أم ألوب على قصائده واحدة فواحدة ، فاطرح منها أبياتا فرادى قلائل ، زعم النقاد أنها معقدة متعبة ، حتى إذا خلا هذا الشعر منها بدأ سهلا جميلا .

أراد الطبيب الأديب أن يقذف ابا الطيب من حالق مجده ، فنزع عن شعره كل صورة تستهوى النفس بروعتها ورونقها . وأحسبه لو تبصر فى شعر المتنبى بعين الرضا لاحجم عن ازدرائه ، متهيباً من بيت فيه تهديد ووعيد كان أبو الطيب قاله كذلك فى لحظ الغيب إذ خطر له أن عهداً سيأتى عليه فينظر الناس فيه إلى شعره ، نقاداً ومعجبين ، فكان مما قال فى هذا البيت إن بعضه يفوق أبا الباحث عنه . . . وليقل ابو الطيب ما يشاء من تهديد ووعيد ، فان من هجم على شعره بعده كثير محصوه ، وبيتوا غث قصائده من سمينها . ولو أنه كان يملك رجعة إلى حساب ناقديه لكان له شأن أى شأن فى قصائد يمدح بها الدكتور طه حسين لتأليفه كتابه فيه « مع المتنبى » وقصائد ثانية يتوقاها أستاذنا الدكتور بعد أن نقد قصيدته السينية التى قالها المتنبى فى شبابه فكانت عنده محشراً لتكلف المعانى وسخف المبانى .

وارى ان من مجاملة هذا الشاعر — إن كان الفن يعرف مجاملة — أن يصفح المصريون عن أبى الطيب ، ويتجاوزوا عن هفواته ؛ إذ كان حل بين ظهرانيهم ضيفاً ، ثم ركب الليل جلا ، للخلاص من كافور بعد أن خابت زورته . وكان أبعد تكريماً للمتنبى لو أن طبيب العظام ود لو يأخذ الشاعر إلى كلية الطب فيداوى عظامه التى أحرقتها الحمى حين جاء بلده فراح يقول عن حمى البرداء :

نزلت بأرض مصر فلا ورائى ... تخب بى المطى ولا أمامى
ضعيف الجسم يمتنع القيام ... شديد السكر من غير المدام
وزائرتى كأن بها حياء ... فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى

فاذا أنصف طبيب مصر الذى لم تحل مباضعه ومسابره دون تذوق الأدب والتمرس بنقده ، وجد أن فى شعر المتنبى تعقيداً قليلا وسهولة كثيرة يعيا الاستشهاد بها . وأى شاعر فى قديم الدهر وحديثه خلا شعره من مكامن الزلل ومواضع الضعف والاسفاف .

زكى مبارك